عبد اللطيف عقل : الغائب .. الحاضر

بقامة مربوعة ولحية ثلجية، وقد اشتعل رأسه شيباً، غادر الشاعر الإشكالي الحاضر عبد اللطيف عقل ونام نومته الأبدية .. كغيره من المبدعين غُبن عقل، وبرأينا فإنّ ما كتب عن الراحل كان تعليقات لم ترتقِ لمستوى البحث والنقد الحقيقي والحفر عميقاً في أوراق الشاعر وأعماقه .. والمسؤولية جماعية يتحمّلها النقاد والأكاديميون والمؤسسة الثقافية الفلسطينية والأصدقاء كذلك.

بقليل من الجهد والتقصّي في إبداعات عبد اللطيف عقل (الشعر، المسرح، المقالات والدراسات .. الخ) نجد عقلاً شمولياً لو أمهلته الأيام لأعطى عطاياه الفكرية والثقافية والشعرية والفلسفية والمسرحية وشغل الكثيرين بها .

ونحن في هيئة تحرير «الشعراء» ولمناسبة ذكرى رحيله التاسعة، نقدم في هذا العدد ثمانية مقالات نشرها الغائب – الحاضر في جريدة القدس العام 1992، ولم تنل نصيبها من القراءة والتمحيص، هذه المقالات تكشف عن روح الشاعر واستشرافه للغد الفلسطيني، فبكلماته الكاوية، الساخرة والساحرة يوقظ عبد اللطيف الكامن في الذات والموضوع ويتدفّق برؤيويته التي تتذبذب بين الاشتداد والامتداد.

ويُذكر أنّ جلّ مقالاته جمعها في كتاب «سرّ العصفور الأزرق كالدم»، وهي مقالات نقدية عبّر خلالها عن مواقفه من واقعه وزمنه وتعليقاته التي نفذت إلى ما وراء ما هو راهن وآني .. حفنة من مقالات لتذكّرنا بأنّ هذا (العقل) كان هنا .. نهل من الحياة واغترابه فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .. حتى طوته الغربة الغريبة .. فعلى روحه السلام .

(المحرّر)

إلى وزير الشرطة الفلسطيني

سيدي صاحب المعالي «باعتبار ما سيكون إن شاء الله!»
تحية الخوف من الذي لم يأت بعد!
أشواق القلق والتوتر الساكنة في النفوس والبيوت!
آيات المحبة مقرونة ببيانات الولاء والطاعة، سيدي، السلام عليكم ورحمته جلّ جلاله، خالق السماوات والأرض، من وسعت رحمته الإنس والجن، الغفور الرحيم، القادر القاهر.. وبعد!!
أعرف أنك هناك في مدينة ما، أو قرية ما، أو بيت ما، ولكنني لا أعرف لون عينيك، فالشوارع مليئة بالعيون السوداء والزرقاء والعسلية، وأجزم أنك لست من هواة الشوارع .. أحس بك مع الهواء حين أتنفس، وأرصدك في منحنيات الشوارع الضيقة، ولكنني لم ألتق بك حتى هذه اللحظة، ولست أدري بالتمام متى سنلتقي ..
اسمح يا صاحب المعالي، باعتبار ما سيكون إن شاء الله، أن أبعث إليك بهذه الرسالة، واقبلها من مواطن مسكين .. طيب، لا يكنّ لمعاليك، باعتبار ما سيكون، إلا كل مودة واحترام.. مواطن يدعو الله في الصباح والمساء أن يديم على كتفيك المتهدلتين بهم الشعب ومشاكل الوطن، آسف، مشاكل ما بقي من الوطن، عباءة الصحة، وأن تستمر رافلاً بثياب الفخار والمهابة، حتى نجادل بك الوزراء، وندل على القاصي والداني بعبقريتك وحسن تدبيرك للعويص من الأمور والخامر من القضايا المستعصية منذ الحرب الأولى وإلى الحرب الخامسة ..
أستعيذ بالله أن تكون رسالتي هذه توجيهاً، فمعاليك، باعتبار ما سيكون، فوق التوجيه، وتحت الشورى، وبجانب الرأي العام وأمام العمل الديمقراطي .. فلا تفهمها سيدي كذلك .. وأستعيذ بالله أن تكون رسالتي هذه نقداً وإصلاحاً، فأنت أكبر من كل النقد والنقود، وأنت الذي يصلح بك الإصلاح وتصير بك الصلاحية .. وكل المدارس الثانوية والجامعات والقلاع الوطنية من أقصى جنوب القطاع الشجاع إلى

أقصى شمال الذي ظل من الضفة الغربية ..
أستميحك العذر يا صاحب المعالي، باعتبار ما سيكون، أن تتصور أنني أتدخل في شؤونك العلية، أو أمور وزارتك الفتية، فأنا لست أكثر من مواطن بسيط، خطر لي أن أستفيد من مواسم حلمك، وحدائق أدبك وأخلاقك، وأخط لمعاليك، باعتبار ما سيكون إن شاء الله، هذه الرسالة العاجلة، فقد أوشك قطار الاحتمال على التوقف، وقاربت البقع البركانية السوداء أن تستحيل إلى لون برتقالي خارق الجمال والعذوبة .. أقرأ يا سيدي الوزير، باعتبار ما سيكون إن شاء الله، في الصحافة المحلية والجرائد اليومية، وأستمع مع أولادي وجيراني إلى نشرات التلفاز كل حين وآن .. إنّ أعداداً غفيرة من المواطنين سوف يبدأون التدريب قريباً على أعمال الشرطة، وإقرار النظام، وحفظ الأمن وتوفير الأمان .. وفي هذا اليوم الجميل وفي صباحه البهي كصباحك، طالعتني صحافة البلاد، وشائعات العباد أن عشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من أبناء وبنات هذا الشعب الطيب سوف يبدأون تدريباتهم على الأعمال الشرطية قريباً جداً .. فانزعجت للنبأ أيما انزعاج، واستشرت من الرجال صفوفاً بعد صفوف، ومن النساء الفاضلات أفواجاً بعد أفواج .. وطرحت أمامهم تساؤلاتي وهمومي، فإذا بها تساؤلاتهم وهمومهم .. وقبل أن بادرت إلى الكتابة إليك يا صاحب المعالي القادمة، أشار علي الجميع أن أراقب جُملي وكلماتي، وألا أسمح لحرف أن يفلت من سطره أو جملة تخرج عن مألوف الأدب في مخاطبة الحكام وذوي الأمر والنهي، وألا أتطاول باللغة على أصحاب الشأن في المستقبل القادم مع الزمان .. وها أنا أطرح أمامك الأسئلة.
– هل سيكون لدينا شرطة نسائية..؟ وهل سيعملن في المكاتب أم سيشاركن في أعمال الدورية، وملاحقة اللصوص والمجرمين، آسف، اللصات المجرمات؟!
أليس العدد يا سيدي كبيراً، فثلاثون ألف شرطي لمليون ونصف المليون من المواطنين يجعل لكل خمسين مواطناً شرطياً.. ألا ترى يا سيدي الوزير، باعتبار ما سيكون، أن هذه النسبة أكبر من نسبة التلاميذ إلى المعلمين في كل مراحل السلّم التعليمي والجامعي، وأكبر من نسبة المرضى للطبيب الواحد أو عدد الحوامل بالنسبة للقابلة، أو حتى عدد المزارعين بالنسبة لمساحة الأرض الباقية..؟!
فلماذا سيدي الوزير لم يكن الاهتمام الأول بواحدة مما يلي من الأفضليات؟
لماذا لم نرسل عشرة آلاف معلم للتدريب على التربية والتعليم في رياض الأطفال، والمدارس الابتدائية، ودوائر البحث العلمي في الجامعات؟ ولماذا لم نرسل بضعة آلاف للتدرب على الإرشاد النفسي والإرشاد التربوي والخدمة الاجتماعية للفرد والأسرة والعناية بالشيخوخة .. وأطفال الشهداء وأراملهم؟.. ولماذا لم نرسل بضعة مئات للتدرب على تصميم الأطراف الصناعية وأطر الأسنان، وصناعة العيون الزجاجية ..؟
لماذا يا سيدي لم يكن خيارنا الأول تدريب المعلمين والمعلمات والأطباء والطبيبات والممرضين والقابلات والمزارعين والمزارعات ..؟
أهلنا يا سيدي الوزير، باعتبار ما سيكون، تفزعهم الشرطة، ويتحسسون من النياشين ورموز الرتب العسكرية، إننا نخاف يا سيدي من لمعان الأزرار ولمعان النجوم في السماء ولمعان الذهب .. لم يبق يا

سيدي نظام واحد للشرطة والأمن وكلاب البوليس وأجهزة التفتيش إلا وتم اختباره على بعض شعبنا .. فلماذا يا سيدي فجعتنا بهذه الأولوية الصارخة كالعذاب؟!
شعبنا يا سيدي، دون النظر إلى الجنس أو السن، بين جريح ومعوق جسدياً أو نفسياً أو جسديّاً ونفسيّاً معاً .. مسجون أو مشروع سجين .. يريدون الكساء والغذاء والحذاء والبيت البسيط الذي بسراج المحبة والأمان يضاء .. يريدون غرفة إضافية في مدرسة، سريراً جديداً في مستشفى، كتاباً ملوناً بالسلام والأمان، شعبنا يا سيدي الوزير من الشباب الطامح في العلم والمعرفة .. نريد ثقافة تجلو الوجدان الجمعي وتجعل الحياة ليس أكثر جمالاً، ولكن حياة أقل لؤماً وقبحاً .. فلماذا اتجهت يا سيدي الوزير القادم إلى هذا الخيار العجيب..؟
كنت أحلم، مثلما يحلم الآلاف من أبناء شعبك الطيب أن تكون الأفضلية الأولى التدريب على تصميم المشاريع الصغيرة والكبيرة في الزراعة والصناعة والتجارة، فيجد كل طالب عمل عملاً .. كنت أتوقع إرسال المتدربين إلى المستشفيات ودور العلم ومراكز البحث العلمي، ومؤسسات الاتصال الجماهيري ودور النشر ومعاهد رعاية المسنين والمعوقين والذين يعرفون التحدث مع الذين قضوا السنوات الطوال يدفعون من شبابهم وأعمارهم .. ويجيدون بالتدريب والمطالعة بعث الأمل في نفوس أجيال الشباب ..
كنت أتوقع يا سيدي الوزير، باعتبار ما سيكون، أن يكون همنا الأوّل :
أن نحيل السجون والمعتقلات إلى مدارس ومسارح ومطابع ودور نشر وأن نحول مراكز التعذيب إلى مستشفيات ودور لرعاية المسنين والمعاقين وبساتين لرعاية الطفولة والأمومة ..
وأن نحول البيوت المغلقة والدور المهدمة إلى متاحف للتراث الشعبي ومعارض للوحات التشكيلية .. وأماكن لإلقاء الشعر والشعر الشعبي.
سيدي الوزير .. أعز الله جنابك السلطاني ..
رجائي ألا تحقد عليّ، ولا تأخذك العزة بالإثم، فتظن بي الظنون .. فأنا المواطن البسيط من قبل ومن بعد .. أعرف أن النجوم تتلألأ في السماء، كل نجمة لها ضوؤها الخاص .. لكن هذه النجوم المتلألئة في الليل لا تصنع نهاراً .. لأن كل نجمة تضيء ذاتها فقط .. والذي يضيء ذاته فقط يظل معتماً .. وأعرف، أيضاً، يا صاحب المعالي، باعتبار ما سيكون، أن العصي الغليظة قد تهدم الجسد، لكنها تفشل في تركيع الإرادة وتخريب الروح ..
وأخيراً سيدي صاحب المعالي القادمة إن شاء الله، تقبل التحية الخالصة لوجه الله والوطن ولشرف إنسانية الإنسان، متمنياً لك التوفيق في غير ما أخطأت من عذاب وتعذيب .. رجاء أن يكون الذي أسمع وأرى من الشائعات الوردية، ولتنم قرير العين، يا صاحب المعالي، باعتبار ما سيكون إن شاء الله..!!

الكُرشي والكُرسي

ملاحظة : سألني صديق أحترم عذاباته وعذابه، عن السرّ في استخدامي لهذا الأسلوب الصارخ أحياناً كدفق الجرح، الهامس حيناً آخر كصوت العذاب .. الجاد حتى الفجيعة .. الهازل مثل المهرجين، وسألني، أيضاً، من أين أجد موضوعاتي هذه؟! قلت لصديقي العذب المعذب :
إن ما نحن فيه تركيب عجيب نادر من كل ما تفضلت به، وما لم تتفضل به لضيق الوقت وضيق الصدر وضيق ذات اليد، وضيق ذات الجيب، وضيق ذات الصواري. والذي نحن عليه منذ حين من الدهر، بل منذ أحيان يختلط فيه الصراخ المكتوم بالهمس الخائف المظلوم، فيه الجدية الحزينة كالفقدان والهزل الضاحك المضحك كحركات البهلوان، فأنا لا أفعل أكثر من رسم قلب الشارع الفلسطيني النابض بالشرف والكرامة والعزة، ولا أقول إلا ما يودّ أن يقول المعذبون في هذا القلب الاجتماعي الأصيل .. الذين أصلوا لهذا الشرف ودفعوا من عيونهم الضوء لإنارته، ونصبوا لكرامته تماثيل يسقطها المحترفون احتلال (الكراشي) التي صاغوها ورقاً هشّاً كورق الحيطان، وأقاموها على عذابات وعذاب من أوصلوهم إليها فإذا بها هياكل من القش ونشارة الخشب، إن أطفال المخيم الطيب الكريم، هم حروفي، وسكان القرى الصغيرة والكبيرة البعيدون والصامتون هم كلماتي وفواصلي ونبض سطوري ولهم مني السلام، لأنه لهم ومنهم، ومثلهم سكان قصبات المدن المكتظون بالأطفال والأحلام.

تعريفات لشيء واحد

(الكرشي) هو قطعة أثاث رخيصة الصناعة مادتها هشّة، وحجمها أوسع مما ينبغي، وهي رمز أو إطار يقول القاعد عليه أو فيه، فيبدو (الكرشي) حوله فضفاضاً واسعاً بشعاً، ويظهر الشخص القاعد عليه أو فيه صغيراً مهما تنافخ وتورم، ويبدو دائماً كمن يلبس ثوب أبيه الذي أنجبه أو سيده الذي أوصله، إنه

دائماً في دائرة من الضوء تظهره يرتدي شيئاً ليس له، إنه استبد به بالسرقة والحيلة والاقتناص.
(الكرشي) يرتبط بالكرش، والقرش كعملة نقدية، وسمك القرش، وقرقوش، والقروشة التظاهرية، والقرشونية الوصولية، وهي تطوير لظاهرة «الكرسون» في المطاعم والبيوت والمقاهي، وكل هذه الظواهر، تؤدي إلى (الكرشي)، إن (الكرشي) هش ضعيف لأنه يقوم على التنكر للآخرين، والتلاعب بثقتهم والاستفادة من ثقتهم الأصيلة التي أوصلت صاحب (الكرشي) إليه، والذي بعد صعوده درجات السلم المسرحي، دفع بقدمه السلم بعيداً واستأثر بالمقعد الأثير.
أما (الكرسي)، فيرتبط بالتكريس، وهو المبدئية وأخلاق الرفاقية والتضحية والوفاء للآخرين ذوي الجهد الحقيقي المتواصل، الذي صاغوه في سلم الوصول درجة درجة، ويرتبط الكرسي بالكراس والكراسة والكراريس، وهي تشير إلى الثقافة والوعي والجهد الفعال الذي يمحو الأمية، أمية اللسان والقلب، ويلغي أمية الكذب والتسلق والتنكر، إن الكرسي دور أصيل من أدوار البناء المتراتب الدرجات، حيث يلعب الرجل الدور الذي هيأته أن يلعبه جهوده الحقيقية التي كرسها لهذا الدور القيادي وكرس حياته كلها أن يلعب هذا الدور القيادي بمبدئية الانتماء الرفاقي أو الروحي أو الأخلاقي، والدور يرتبط به المركز بما له من مسؤوليات هي أخلاق القائد المعبرة عن هموم رفاقه وشعبه، والمركز هيبة ورفعة لكنها هيبة ما دام الذين صنعوها لنا يعتقدون أن المهاب يستحق الهيبة، وهي رفعة وعلو شأن ما دام الذين يحملون الكرسي على أعناقهم وأكتافهم يرون ذلك، وإلا فإن أكتافهم تتعب بالملل والمرارة، وأعناقهم تلتوي بخيبة الظن والغضب، وتتحول الكرسي إلى (كرشي)، ويظهر الجالس عليها أو القاعد فيها مجرد قرش أو كرش أو أي شيء غير مناسب.
الوصول إلى الكرسي يحتاج، إذن، إلى مواهب ومؤهلات وجهود، يقرّ بها شعبنا الطيب الأصيل لأنها مواهب مبدعة، ويعترف بها لأنها مؤهلات أثبتت فعاليتها بالفعل والقول، وهي جهود متعبة ومضنية، لأن نتائجها انعكست على أفراد الشعب ومؤسساته بصورة ملموسة ومحسوسة ويمكن قياسها ومشاهدتها، أي أن الوصول إلى الكرسي لا يكون مقصوداً وليس نتيجة لخطة مسبقة ومخطط لها، إنها ثقة الرفاق والزملاء وجهدهم في دفع من يظنون أنه القادر على التعبير عن طموحهم وأهدافهم فيرفعونه على سلم الأكتاف والأعناق إلى هناك، إلى الأعالي حيث الكرسي الذي يدوم بدوام الأعناق تحمله والأكتاف تسنده، وحين يتنكر الجالس لهم يتركونه، فإذا بالكرسي يتحول إلى كرشي ويهبط إلى الحضيض، ولكن الجالس عليه أو فيه يظل يعتقد أنه ما زال هناك في الأعالي ويظل يتصرف من ذاته وذوات الآخرين، كما لو أن الكرسي بقي كرسياً ولا يريد أن يقتنع أن الكرسي صار (كرشياً).
الوصول إلى (الكرشي) وصول بالتنكر والابتعاد عن الجماعة وعزلهم ونسيان جهودهم، إنه أسلوب احتراف الانتهازية واستلاب الآخرين والهبوط بأشخاصهم وأحلامهم إلى الاستعمالية والاستعراضية والتغطية، وأصحاب (الكراشي) يعرفون ذلك تماماً، لذلك يتلبسهم الخوف ويسكنهم الشك وتزورهم الكوابيس طوال الليل وترافقهم (الكرشي) كل النهار، مخافة أن يعودوا من دورة المياه ولا يجدون

(الكرشي)، يودون النوم على (الكرشي)، لذلك تراهم وهم يتحدثون إليك يهزون سيقانهم لتذكيرك أنهم يقعدون على (الكرشي)، ويدورون حول أنفسهم للتأكد أن الذي يدور تحتهم هو (الكرشي)، وحين تطرح على أحدهم التحية، لا يرد عليك إلا إذا اعتلى (الكرشي)، لذلك يموت صاحب (الكرشي) ظاناً أنها تلتصق بظهره وقفاه إذا اقترب منها صديقه عاداه، وإذا مستها زوجته ولو لتنظيفها فزعها بالقاسي النابي من الألفاظ، وإذا تكلمت غير متغزل به وبها استمطر عليك شياطين الأزلام، وأصحاب الكسب الحرام، همس صديقي الذي يحترف سترة الناس وإخفاء عوراتهم حزينا مهموماً؟

هل ترى أنّ كل (الكراسي) وهي الأدوار الاجتماعية التي تتخذ القرار بشأن المستقبل الأجمل والأفضل تتحول إلى (كراشي)؟ وماذا عن غد وبعد غد حيث الرجاء؟ أو على الأقل العزاء؟

قلت لصديقي :

هناك الرجل الطيب أو السيدة الطيبة، وهناك الرجل المحظوظ أو السيدة المحظوظة، وتابعت شارحاً :

الرجل الطيب يكرس جهده وحياته للارتفاع بأحلام وتطلعات جماعته إلى حد الواقعية، يقرأ الكرّاسات ويكتبها، يريد مدرسة للأولاد جميعاً، بما فيهم أولاده، ويناضل من أجل مشاريع حقيقية تنتج الغذاء والكساء والمسكن لجميع المحرومين من الوجبة الصحية والثوب الذي يستر العورات جميعاً والسقف الذي يحمي من التشرد والبرد ويكون الوطن في الوطن له ولهم الرجل الطيب يكافح من أجل نفسه وجماعته، ويوما بعد يوم، يستكمل الناس السلم ويرفعونه إلى سدة الكرسي ويحتفلون به وبإرادتهم.

الرجل المحظوظ يختلف تماماً، محظوظ بالصدفة الوراثية أو العشائرية، محظوظ بالكرش أو القرش أو القناصل أو الآخرين، الرجل المحظوظ قد يكون حظه قد توفر بامرأة واصلة منابع الجاه والثروة، أو برجل قيم على تقدير الناس وتصنيفهم، والرجل المحظوظ قد يكون حظه في موهبة الوصول على أكتاف الآخرين وجهدهم، الرجل المحظوظ ذو مهارة متميزة تقلب الأبيض أسود، والحق باطلاً، وتصف الفقير طماعاً، والمطالب بحقه ملحاحاً، والواعي لجهده وإبداعه متطفلاً. إن الرجل المحظوظ لا يحتمل الآخرين إلا باعتبارهم عناصر لزيادة حظوظه،

وباعتبارهم موضوعات يمارس من خلالهم الحصول على مكافآت لحظه الضارب دائماً. الطيب يقيم البناء ويعليه، لكن المحظوظ يسرقه ويسكن فيه. الطيب يجاهد الإبداع ويحققه، والمحظوظ يسرقه ويسوقه ويحيله إلى رصيد فوق رصيد.

من النادر في هذه الأيام أن يكون الطيب محظوظاً، أيضاً، لكن القاعدة التي تبدو بالزور طبيعية هي أن المحظوظ يوظف كل الأدوات ليظهر طيباً. على أية حال، لا يمكن للمحظوظ أن يكون طيباً، لكن الحالة الطبيعية أن يكون الطيب محظوظاً، وعزاء هذا الشعب الطيب أنه يعرف الطيب من المحظوظ، ويدرك الفرق بين الكرسي و(الكرشي) ..

اللهم احفظنا من الحظ الذي لم يأتِ بعد ..

الملفات الحمراء

قال صديقي : اللجان الفنية تعمل ليلاً ونهاراً، تبلغ في العدد (28) لجنة قابلة للزيادة حيث يلزم الأمر. تدور حول خمس لجان أساسية هي اللجان المحاور : القدس، الماء، اللاجئين، الصحة، التعليم.. وأعضاؤها في حدود (300) خبير من فتياننا وفتياتنا الغيورين والعارفين. قلت لصديقي : لست أشكك في قدراتهم، رغم أنني لا أعرف منهم الكثيرين ولا منهن الكثيرات، ولكنني أتساءل عن مدى علاقتهم هم وعلاقة ما يفعلون لأعضاء الوفد المفاوض، ولا كمية أو كيفية دراساتهم والمعلومات التي يتزودون بها ويزودون. قال صديقي – وهو بالنسبة إليهم من المقربين : علينا أن ندعمهم وأن نقف إلى جانبهم نشد أزرهم ونتحمل وزرهم، فهم الجنود المجهولون في معارك السلام التي أين منها معارك الحرب والضرب. قلت لصديقي : معك بعض الحق، ولكن لا يمكن أن نتصرف بجاهلية «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، لأنه إذا كان لا بد من أن نقف إلى جانبهم، فلا بد من أن نعرف ونحس ونلمس ذلك الجانب الذي تريدنا أن نقف إليه، وإذا كان لا بد أن نتحمل وزرهم، فلا بد أن نشعر بذلك الوزر. أقصد أن نشاركهم تقدير حجم ووزن ذلك الوزر، ثم إنني أتشاءم من المعارك الحربية، ولا أرغب في أن تكون نتائج المعارك السلامية كما كانت نتائج المعارك الحربية، لأنها كانت كما تعرف، والعياذ بالله، كارثية. قال صديقي : لا أحب لهجتك الساخرة، فليس في الأمر جاهلية، وليس هناك ظالم ولا مظلوم. وما دامت تصدر عن ديمقراطية في الحوار .. فلا بد من أن تلتزم بشروط هذه اللعبة، وأنه ليس أمامنا من خيارات إلا ما ترى.

قلت لصديقي، والليل يوشك أن يلف المكان بالعتمة : أنت تحرِّضني أن أقول لك ألف باء الديمقراطية، كما أنني أرتفع بك أن تسمي الذي يجري لعبة، وأن لها شروطاً، كما وأعتقد أنك تردد ما يغني به المغنون في الجوقة النشاز من أن لا خيارات هناك، إلا ما نحن فيه. ففي البداية التي لا بداية لها، كانت الديمقراطية « *Democracy*» مؤلفة من مقطعين فقط ، ولا ثالث لهما : المقطع الأول هو «*Demos*» ويعني باللغة اليونانية القديمة الشعب، أما المقطع الثاني فهو «*Cratos*» ومعناه الحكم، فيصير معنى الكلمة في

أصلها اليوناني وحسب قواميس اللغات «حكم الشعب» .. فاللجان الفنية الثماني والعشرون، واللجان المحاور الخمس إذاً، يتعلق عملها بالشعب، أقصد الشعب الفلسطيني .. الذي يجب أن يحكم نفسه حسب معنى الديمقراطية السياسي .. لكن، خلال الزمن، ومنذ بداية الديمقراطية في المدن اليونانية، حيث كان شعب المدينة يحكم نفسه بنفسه عن طريق اختيار ممثليه بصورة حرة ومراقبة ولا تلاعب فيها .. أقول : منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، تطور معنى الديمقراطية وأصبح يعني أسلوب حياة الشعب، وليس أسلوب حياته السياسية فقط .. فقد صار للديمقراطية معنى الديمقراطية الاجتماعية، ومعنى الديمقراطية الاقتصادية، ومعنى الديمقراطية الثقافية، إلى جانب معنى الديمقراطية السياسية. هذا من أجل معلوماتك فقط .. فنحن الشعب بحاجة إلى معرفة تفاصيل الذي جرى في مدريد عاصمة إسبانيا أو باللغة العربية «الأندلس»، مروراً بموسكو حتى واشنطن، أما اليوم، فنحن نستمع إلى الشائعات، والتحليلات والتعليقات والتشاؤمات والتفاؤلات، وكل تفاؤل هو تفاؤل حذر.. وكل هذه مصادرها وسائل الإعلام الإسرائيلية .. من تلفزيون وإذاعة وصحافة عبرية وعربية .. أليس من حق الناس أن يعرفوا ما الذي يجري؟ قال صديقي مقاطعاً : تظن أنني أجلس في أحد صفوفك، وهذا وحده يفتح شهيتك للكلام. قلت لصديقي المتحمس : لا تتهكم، فالأمر أكثر جدية مما تعتقد .. إن الديمقراطية ليست لعبة، لأن الذي يجري الآن يمس الأطفال الصغار والأطفال الذين لم يولدوا بعد، يمس الرجال والنساء، ويمس الزمن، ليس الزمن الذي مضى، أو الذي يمضي، بل الزمن الذي سيجيء .. أما الخيارات التي تقول إنه لم يبق منها إلا هذا الخيار فإنها كثيرة، لكن الخيارات تصدر عن إرادات وعن إبداعات.. ولو وافقتك جدلاً أن لا خيارات أخرى .. فإن الخيارات تتكاثر بالأبحاث والدراسات والأفكار، وفي تجربة شعبنا على مدى نصف قرن من الكوارث والمصائب والمعاناة آلاف الخيارات ومئات الاجتماعات، التي يمكن أن تكون مطروحة على طاولة المفاوضات. قال صديقي يتحداني : كلنا هكذا .. إذا لم أكن في الميدان فكل من فيه عرضة للقدح، تظن نفسك المبدع الذي لا إبداع بعد إبداعه، ولكنك لو كنت في المصيدة، لرأيت مجالك الضيق وملعبك المحدود.

قلت لصديقي: أنا لا أقدح ولا أمدح، بل أميل إلى دعم هؤلاء الرجال وأولئك النساء الذين تحملوا عبء هذه المرحلة القاسية، والتي يعرف الله وحده كيف يمكن أن يكون ختامها.. كان الله في عونهم .. ولست بطامع في مزاحمتهم هذا التعب، ولا هذا الشرف الذي لا يحق لي أن أدعيه .. ولكنني أتكلم كمواطن .. مواطن يبحث عن الوطن .. في كساء يستر العورة، وسقف يكون بيتاً، أو عن وطن في الوطن، ولقمة شريفة، ليست مغمسة بالدم أو الحرام .. وكثيرون مثلي، ليس لهم من الحظ والوفرة ما لغيرهم من أبناء وبنات السعادة .. العارفين والعارفات أسرار الفاكس وسريرته. قال صديقي وقد لمحت الأسف في قسماته : أوتظن أن في جيوبهم الطعام والكساء والماء والشقق والكتب والأقلام والمساطر. قاطعت صديقي حتى يتوقف : لست أقصد ذلك، لكنني أريد أن أسألك عدداً من الأسئلة المهمة. قال: تفضل، من الأفضل أن تسأل بعد أن تجيب. قلت : أليس من المفروض أن وفدنا يجلس على طاولة المفاوضات مع وفود إسرائيل وسوريا والأردن ولبنان ومصر ودول الخليج والسعودية .. إلخ. قال صديقي : نعم في المفاوضات المتعددة،

ونسيت هيئة الأمم المتحدة والمجلس الأوروبي وروسيا البيضاء وروسيا الصفراء وروسيا الخضراء وروسيا التي كانت حمراء، ثم لا تنس اليابان وكندا، أما فرنسا حفظها الله، كما حفظت الجزائر بمليون شهيد، وبريطانيا العظمى، التي توسخت أياديها بدم شعبنا وشعوبنا العربية الأخرى، كذلك الولايات المتحدة، التي لا يقدَّرُ نَفعها علينا بحساب. قلت سعيداً بالوعي الذي سقط على صاحبي من سماء التاريخ والجغرافيا وأبديت له إعجابي بذاكرته اللماحة في حفظ الأسماء التي رائحتها بالدم الفلسطيني فواحة : هل يحمل وفدُنا معه ملفات إلى طاولة المفاوضات.؟ نعم يحمل .. ملفات من كل صنف ولون .. وفيها ما لذ وطاب من الدراسات والأبحاث والمعلومات الضرورية.. والكافية أبداً .. والعلمية. قلت لصديقي : أنا أتمنى أن يحمل وفدنا إلى هيئة الأمم المتحدة ملف الأمم المتحدة، وإلى المجلس الأوروبي ملفات الدول الأوروبية واحدة واحدة .. وإلى روسيا ملف روسيا، وإلى اليابان ملف اليابان وملفات كندا وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وملفات الدول العربية الشقيقة، من ملف لبنان إلى ملف الكويت وما بينهما، من ملفات تعجز عن حملها الطائرات النفاثات. قال صديقي : لا أفهم مقصدك. قلت لصديقي وقد جمعت كل الجد والحزن الطويلين : كل هؤلاء لنا في ذمتهم دم أو عذاب، ولنا في وجودهم وجود، وفي حقهم حق .. وفي عيونهم عيون، وفي بيوتهم حدائق .. كل هذه القبائل، لشعبنا في أعناقهم فضائل كذلك، لا بد من أن نحمل ملف كفر قاسم وبرعم وإكرت وعمواس وبيت نوبا ويالو، ولا بد من أن نحمل ملف تل الزعتر، وصبرا وشاتيلا، والكرنتينا ..

ولا بد من أن نحمل ملف أربعمائة ألف رجل وطفل وامرأة .. أنبتوا النعنع في صحراء العرب، وزرعوا الباذنجان والبطاطا وعنب الخليل في بوادي الربع الخراب، ورمال الخليج، والبيداء الإفريقية .. لا بد من أن نتحدث عن الماء والهواء والقرى التي دُمِّرت والبيوت التي نسفت .. والصغار التي حُبست .. والنساء التي رُمِّلت .. ولا بد من ملف لدموع الأمهات الثاكلات، والأخوات الحزينات، والصغار اليتامى .. ملف للمعاقين والمسجونين والمبعدين .. ملف الهياكل التنظيمية للقرى التي لا تزال تَضْمرُ وتَصْغُر حتى حد الاختفاء .. ملف الضرائب التي دفعها الشعب من لقمة عيشه، في كل مكان من الدنيا الفلسطينية والدنيا العربية التي تشبه الآخرة. صرخ صديقي، وقد أزعجه استغراقي وحماسي المتدفق : اتق الله واسكت أيها الرجل .. أوتظن أننا نفاوض العرب أم نفاوض إسرائيل؟ قلت لصديقي : هناك مفاوضات لاستعادة حقوق الشعب الفلسطيني، لكن العذاب والآلام هي من حقوقه التي يجب أن يعوَّض عنها. قال صديقي : تريد تعويضاً من غورباتشوف؟! قلت : ليس تماماً .. فالرجل يشحد لقمة عيشه من محاضراته في أمريكا، فأنا أفضل حالاً منه، لأنني أكسب لقمة عيشي من محاضراتي أمام أبناء شعبي. قال صديقي : إذاً، ماذا تريد؟! قلت لصديقي : أريد ألا يبقى في السجون حبيس .. وهم بالآلاف حتى الآن، وأريد الحديث عن تعب نصف مليون فلسطيني في الكويت، ومثلهم في الخليج، أريد حقوق أربعة آلاف شهيد، في صبرا وشاتيلا، أريد تعويضاً عن الأحزان والآلام والمعاناة، أريد أن يكون كل شيء في ملف، أريد كل الملفات. قال صديقي : هذه ملفات حمراء، لا يجرؤ على حملها شجاع، وشجعان هذه الأيام قليل، الأطفال ملف أحمر،

والقرى ملف أحمر، صبرا وشاتيلا ملف أحمر، المبعدون ملف بين بين، أما شعبنا في الشتات، فملف أحمر. قلت لصديقي : وأي الملفات المسموح بها حتى الآن بالحمل والوضع .. على الطاولات؟! قال صديقي : الملفات الرمادية فقط، الرماد سيد الألوان، والرمادي هو اللون الذي لا شخصية له، يقبل الاحتمالات وهويات الألوان الأخرى الرماد .. طوينا ملفات الحوار، لم أتذكر ونحن نطوي ملفات الحوار إلا ملف المخيم، وملف غزة والبحر، وملف «أم أحمد» التي تعاني سكرات الموت من الهم وكبر السن، وتتمنى ألا تفارق الحياة قبل أن تشاهد حفيدتها الوحيدة التي نجت من مذابح الكويت بأعجوبة أمريكية. تكاملت في رأسي صورة الشعب الفلسطيني الطيب .. ستة ملايين من الناس الرائعين .. فهم في الوطن قسم وفي الشتات أقسام. وأشفقت على اللجان الفنية التي تهيئ لطاولات المفاوضات (6.000.000) ملف رمادي أو ملف أحمر، وهاجمني الغض ب.. غضب ناعم مثل جلود الأفاعي .. وتمنيت أن يتذكر الوفد ملف «عمواس» على الأقل.

(51) دبابة على جسر النهر

كانت السيارة تتدهور، أقصد أنها تنهب الإسفلت المنحدر من خاصرة القدس الشرقية نزولاً إلى منخفض نهر الأردن، وكنت أفكر بالأرقام.

ترى كم من أهل فلسطين قطع النهر وقطعه النهر منذ العام (1967) حتى صباح هذا اليوم؟ وظننت أن المسألة بسيطة ولا تحتاج أكثر من إحصاء عدد السنوات التي مضت بعد ذلك العام العجيب ثم مضاعفة الرقم بعدد أيام السنة، وهي تساوي (365) يوماً، باعتبار السنوات الكبيسة .. ونحتاج إلى عملية طرح بسيطة، بأن نستثني عدد أيام العطل الرسمية كالأعياد والمناسبات .. ثم نضاعف العدد بعدد تقريبي يمثل الذين سافروا، وفي المتوسط، فإنّ البعض يسافر مرة أو اثنتين كل شهر، والبعض الآخر لم يسافر منذ ذلك العام حتى اليوم .. عزوفاً أو خوفاً أو نشداناً للسلامة والسلام.

إن تفاصيل سفرة واحدة عبر جسر الملك حسين تكفي في اعتقادي لتسويد صفحات كتاب من النوع السمين، لأن الشخص المسافر يحتاج إلى قدرة عجيبة على احتمال العذاب المركب من السادسة صباحاً إلى السادسة مساء، بصرف النظر عن فروق التوقيت الشتوي أو الصيفي. العذاب لا يكون بسبب الازدحام في المقام الأول، ولا يكون العذاب بسبب جروح الكرامة من بيعك من سائق إلى سائق، وليس العذاب بسبب البرد القارس في مرتفعات رام الله والقدس ونابلس، في ساعات الصباح الأولى، وليس كذلك بسبب درجة الحرارة المرتفعة في الأغوار، والأوكسجين الخفيف في الهواء، والعرق الكريه الذي يمسك بثيابك وجلدك مثل صمغ اللوز البري.

إن العذاب لا يكون بسبب البطء المقصود والمراحل التي يقف الزمن عند إنجاز كل مرحلة.. مرحلة تقديم التصريح وتسليم الهوية .. ومرحلة انتظار الباص إلى الجانب الأردني .. ومرحلة التسجيل في الجانب الأردني.. ومرحلة ركوب السيارة إلى مرتفعات السلط عبر طريق ناعور أو طريق واد شعيب. ليس العذاب

من الدفع في كل ثانية ودقيقة .. دفع أجرة الراكب، والدفع لاستراحة أريحا، والدفع لعتالة الحقائب، وليس الدفع لثمن التصريح بأهم من العذابات من الخروج من البيت إلى ساعة العودة إليه.
إن العذاب يكمن في الخوف من تجربة الجسر، فلست تدري متى تعود إليه، فعذاب الخروج أقل مئات المرات من عذاب الدخول، فكأن الترتيب التكنولوجي يفطن دائماً إلى جعل العودة إلى هذا الوطن الجميل تجربة قاسية ومنفرة، بحيث تسمع دائماً من الناس من حولك أنها المرة الأخيرة، ويقسم الكثيرون أنها المرة التي لن تكون عداها مرة أخرى .. وتدور الأيام، فإذا الذي أقسم ألا يفعلها قد فعلها لأمر أو لآخر.
في العودة ترى العجب العجاب، من مرحلة التفتيش الأولى، إلى مرحلة استلام الهوية، إلى مرحلة التفتيش الجسماني، إلى مرحلة إعادة الأشياء إلى أماكنها.. ثم مرحلة ما بين الجسر والاستراحة، والمرحلة الأخيرة من الاستراحة إلى البيت .. هذه المراحل الخمس لها ما تشترك فيه من عذاب ليس أقله الانتظار المميت للأعصاب .. ولكن رؤية الأطفال الصغار تقطع القلب، وتجعل الرجل عاجزاً تماماً ومقهوراً بصورة فاجعة. على هامش مسرحية العذاب المدروس، لم أستطع إلا أن أتشبث بهذا المخلوق الصغير العجيب والذي اسمه الذباب .. والذباب أنواع، منه الكبير والصغير والمتوسط، منه المعاند ومنه الذي تهشه فينهشّ، وتطرده فينطرد، أما ذباب الجسر، فهو من نوع خاص بالجسر، وأعتقد أن هذا النمط من الذباب لا يوجد إلا هناك.
من أخصّ خصائص ذلك الذباب الوقاحة، تطرده فيعود إليك، أقصد تطرده عن وجهك فيعود ويحط على وجهك، وفي المكان نفسه الذي طردته منه، أقصد تطرده عن عينك اليمنى فيعود إلى مكانه نفسه من عينك اليمنى.
ومن خصائصه الجوهرية قسوة العض .. إنه لا يعض، إنه يقرص، إنه يلدغ فيحدث ألماً شبيهاً بقرص العقارب، ولا يبدو أن وسيلة متوفرة حتى الآن لحفظ الجسد من اللسع.
كأن هذا الذباب قد استقدم خصيصاً من ترسانة الأسلحة الخاصة بتعذيب الشعب الفلسطيني. وهذا الحوار دار بيني وبين واحدة من الذباب على مرحلتين، المرحلة الأولى خلال الخروج، والمرحلة الثانية خلال الدخول. حامت تلك الذبابة وحطت على خدّ طفل لا يتجاوز الثالثة، استلقى في حضن والدته المجهدة .. طاردتها الأم بيدها لساعة أو أكثر، لكنها أمعنت في العناد .. بكى الطفل بكاءً جسرياً حاداً يقطع الأعصاب، أثارني بكاء الطفل، وتذكرت أن مؤتمراً يعقد في أحد الفنادق في عمان عن «أطفال الحرب إلى أين» قلت في نفسي : سأذهب مباشرة إلى مقر المؤتمر، وسأسأل عن أكبر رأس أجنبي أو عربي، وسوف أصرخ في وجهه أن ذبابة من النوع القارص الماص، كانت قبل ساعات تحط على خد طفل فلسطيني على جسر العودة، وكانت تلسعه ببطء وتؤذيه وكأنها تتلذذ بتعذيب براءته .. وسأقول لهذا الرأس الكبير إنه ليس من الضروري أن يدعو الكفاءات النادرة من كل حدب وصوب إلى ذلك الفندق

الفاره كبغل بالغ في الأكل والشرب فأصبح عصياً على القياد، ليعرف الناس مصير أطفال الحرب .. وليس من الضروري أن يقرأ خبراء علم الاجتماع وعلم النفس أوراقاً ليعرف المهتمون وغير المهتمين مصير أطفال الحرب. حانت مني التفاتة إلى الطفل وأمه، فإذا الذبابة العنيدة الماصة القارصة لا تزال تشرب من وجه الطفل الدم والسكينة، والوالدة الشابة لا حول لها ولا طول .. فأردت أن أتدخل في الوقت الذي أحسست بألم شديد في سطح قدمي، امتدت يدي إلى قدمي، فإذا واحدة من الذباب تمد خرطومها الدقيق الحاد إلى قدمي .. فعجبت لهذا الذباب المدرب على اللسع حتى من خلال جلد الحذاء ولباس القدم. قلت لا بد من استئذان السيدة الأم. فقلت لها : أرجو أن تسمحي لي أيتها الأخت بطرد هذه الذبابة العدوة عن وجه طفلك، إنني لا أحتمل أن يتعذب هذا الصغير إلى هذا الحد، ثم إن بكاءه يقطع قلبي.

قالت الأم الحزينة العاجزة : إنني أحاول طردها منذ ساعتين، ومنذ سلمت الهوية والتصريح، وهي لا تنفك تهاجم ابني بقسوة وشدة، لقد ذكرني إصرارها بغارات الطائرات الإسرائيلية على قرى ومخيمات الجنوب اللبناني.

امتدت يدي بحقد وشوق إلى الذبابة، أمسكت بها بسهولة، وضعت أصابعي حول عنقها الدقيق، وشاهدت فمها المصبوغ بدم الطفل الأحمر القاني، وشددت على العنق بكل ما فيّ من قوة وسمعت فرقعة عظام عنقها تحت ضغط أصابعي وانتزعتها من لحم خد الطفل، لكنني فوجئت بها تمد منقارها الحاد وتنشبه بإصبعي، فتركتها ترف بعيداً وتحط على خد طفل آخر ينام في حضن أم فلسطينية تنتظر، قالت الأم الشابة الوقورة : أشكرك على اهتمامك بولدي، ولو كان والده هنا لقدم لك البيض المقلي ولبن الكيس .. قلت مندهشاً : وأين والده بالخير إن شاء الله؟ والده في السجن، منذ ولادته تقريباً .. لم يره إلا مرة واحدة، بكى وأخبرني ألا أحضره معي في الزيارة .. قال إن كبرياءه لا يسمح له بالبكاء أمام الحراس والزملاء .. لأنه يبكي كلما شاهد طفلاً صغيراً، فكيف وهو يشاهد ولده من وراء القضبان.

ولماذا هو في السجن؟.. أقصد هل فعل شيئاً يستحق عليه ذلك؟ إنه يكره الذباب .. وتهمته أنه يحارب الذباب القارص الماص. ومتى سيخرج إن شاء الله؟ – محكوم بثلاثة مؤبدات وخمس عشرة سنة. قد يخرج مع الأسرى الذين قالوا إنهم سيفرجون عنهم، إنهم (800) معتقل، لا بد أن يكون منهم. قالت الأم ودمعة تغالب أجفانها : أرجو ذلك. – ولماذا تسافرين الآن؟ لي بعض النقود، أريد أن أستلمها.

ولماذا لم تحصلي على كرت يتيح لك قطع الجسر بسهولة؟ أقصد كرتاً مثل ذلك الذي تحمله الشخصيات المهمة. لا أعرف لون ذلك الكرت، لكنهم يقولون إنه مثل العصا السحرية، الذي يحمله لا يرى التفتيش والمفتشين، ولا الناس الواقفين والجالسين، يخترقهم مثل السهم .. يقال : إنّ هذا الكرت مثل طاقية الإخفاء، في ساعة أو بضع ساعة يقطع حامله الجسر، والفيافي والقفار، دون أن يشعر به أحد، ودون أن يشعر بأحد.

قالت الأم : هل هذا الكرت مثل كرت المؤن؟ قد يكون مثله .. كان لنا كرت مؤن، وحين انضم زوجي إلى الذين يقاتلون الذباب القارص الماص، أخذوه منا .. وحرمونا من الطحين، أقصد بعض الطحين وبعض السكر. هل أنت لاجئة؟ نعم وأنت؟ .. تبدو شيخاً وقوراً .. حبذا لو تقرأ لي شيئاً ينفع الولد ويساعده على تحمل لسع الذباب.

نعم .. أنا مثلكم بالتمام والكمال .. وسوف أبذل كل جهدي لمساعدة هذا البطل الصغير.. سأمنع الذبابة اللعينة من العودة إليه .. لكن الذبابة عادت .. الذبابة نفسها .. لكنني وقفت بينها وبين الولد وأمه .. حتى وصلنا سيارة التاكسي .. وفي مكان من عمان، نظرت إلى الأم الصابرة تحمل ولدها وحقيبة صغيرة تختفي في الليل المضاء بالكهرباء.

في طريق العودة، تذكرت الولد الصغير .. على مدى (12) ساعة، من السادسة، حيث بدأت رحلة العودة، إلى السادسة مساء، حيث انتهت .. كانت نفس الذبابة تهاجمني من حين إلى آخر .. وكنت أنهرها بقسوة .. لكنها تعود بعناد. حين وصلت بيتي منهكاً.. وضعت الحقيبة .. ووضعت الورق أمامي وكتبت بعنوان «آه على ذبابة..»، لكن ذبابة حقيقية مسافرة وكأنها كانت معي .. حطت على الورق .. حذفت من الحروف والنقاط ما حذفت .. وطارت بعيداً بتثاقل وكأنها تنوء بالتخمة من دم الأطفال.

تذكرت الطفل الصغير .. وقلت في نفسي .. هذه الذبابة أكلت النقطة عن حرف الذال .. فلم تفعل أكثر من أنها عبرت عن نفسها تماماً .. ولعلها أكثر فتكاً من الدبابات .. فهل صحيح أن السلام سيحل في مساكن ومدارس أطفال فلسطين؟! وهل ستعود الأسلحة إلى مخازنها؟ وماذا سيكون مصير سلاح الذباب .. تركت الأسئلة، وتركت الأجوبة .. وانتحيت جانباً أحاول الابتسام في وجوه أطفالي الصغار.

"الخمس نجوم" .. حالة عقلية

هذه اللغة العربية، مدهشة وعجيبة .. يقع الشخص في هواها فكأنها امرأة بالغة الشيطنة والجمال .. لقد ظلت تغريني وتغويني، حتى فكّرت بالكتابة عن الفنادق والبنادق.. لكنني فكرت فقط .. وتلاعبت بهذه اللغة المدهشة العجيبة فأسعفتني .. وها أنا أحوّل الفنادق إلى نوع منها فقط .. والبنادق تستحيل إلى حالة عقلية .. الفنادق في هذه الأيام مراتب ودرجات .. فكأن الفنادق تعكس الوضع السياسي القائم .. وتقول الطبقات الاجتماعية .. ويمكن أن يتم من خلال دراستها التفصيلية دراسة أحوال القيادة، وأوضاع السياسة والرئاسة .. أما أن الفنادق درجات ومراتب .. فهذا لا جدل فيه ولا جدال .. فهناك فنادق الدرجة العاشرة.. وهي لا تختلف عن البيوت المحيطة بها، مثلها مثل العشش وأكواخ الصفيح .. في الشكل والمضمون والخدمات التي تقدمها لسكانها وزوّارها ..

وهناك فنادق الدرجة الأولى .. أو فنادق النجوم الخمس .. مثلاً .. وهذه رتبة عظيمة الرفعة في عالم الفنادق .. فكأن الفندق ذا النجوم الخمس هو أعلى رتبة عسكرية في قيادة أركان الجيش .. ففندق النجوم الخمس تمتلئ أكتافه بالنجوم اللامعة، وتتزاحم سترة بزته الرسمية النياشين، والميداليات والأشرطة الحمراء والصفراء والخضراء .. أما في عالمنا العربي وفي عالمنا الفلسطيني فالفنادق نوعان فقط ولا ثالث لهما .. مرتبة الدرجة الأولى .. وفنادقها من ذوات النجوم الخمس .. والفنادق ذوات الدرجة العاشرة .. وهي التي لا تتمتع بشريط واحد أو نيشان يتيم .. أبداً هي عارية تماماً مثل خروف العيد بعد ذبحه وسلخه .. هذه الفنادق مثل سكانها تماماً، أيضاً، تكد وتكدح من أول المعركة حتى نهاية الهزيمة وبداية الهزيمة التي تليها، وهي بنفس البزة الرسمية الحاف.. البزة الخالية من شريط على الذراع أو نحاسة لامعة على الكتف .. إنها فنادق مثل الجندي الحاف .. معفَّرة ومغبَّرة الجبين والمدخل .. ضيِّقة الدرجات والثياب والخلق .. مزدحمة بالرجال الأزواج والنساء الزوجات وما بينهما من الأولاد كثار وبنات كثيرات .. رتبة

هذه الفنادق متدنية .. تذكرنا بمرتبة العتّال ونياشينه من الحبال على كتفه، والنجار والحداد والمزارع، على قلة المزارعين، والتلاميذ وأساتذة الجامعات المنتشرة هنا وهناك .. إنّ فنادق الدرجة العاشرة هي بيوت الشعب .. بيوت الشعب في المناطق المحتلة والمخيمات كذلك .. وهي هي .. بيوت الشعب في المناطق غير المحتلة بعد .. أو المحتلة من قبل أنظمة الحكم المحلية والأجنبية .. وذوي الذمم الخراب من أصحاب الفنادق ذات النجوم الخمس .. أو فنادق الدرجة الأولى .. أما عن فنادق هذه الدرجة الأولى، والتي لا درجات قبلها، فحدِّث عنها ولا تتحرَّج .. تطالعك طلعة الفندق ذي النجوم الخمس، تعتلي قامته الفارهة التي تشبه قامة البغل الذي بالغ أصحابه في علفه فنفر وتمرد وارتفع بحوافره فوق بيوت الشعب وفوق التلال والجبال مثل القلاع والمستوطنات. الفندق ذو النجوم الخمس متجهِّم الوجه، رغم الحلاقة اليومية والطلعة البهية .. داكن اللون رغم الفرح الزائف في ابتسامات عامل البار، وعاملات المرقص، ورغم الزي الرسمي لموظفي خدمات الغرف، وللمعان المنبعث من أجساد السيارات الحديثة الواقفة أمام المدخل الرئيسي كعرائس البحار الجافَّة .. فنادق النجوم الخمس، لا تكون في أي مكان، وإنما في مكان استراتيجي، وليس المقصود بالموقع دلالاته العسكرية ومواصفاته لخطط الهجوم الحربية، بل المقصود أن لا يكون وسط تجمعات الغوغاء من الناس، أقصد أن يكون معزولاً حتى يمكن له أن يصير عازلاً .. فهو في الغالب الأعم في أطراف المدينة يطلّ على السكينة ويجاور هدوء الليل، وكسل النهار .. يزوره النسيم صباحاً ومساءً، وهو عليل ويكاد يموت من العلة والمعلول.

إن الفندق ذا النجوم الخمس لا يمكن أن يعزل سكانه عن السكان، ويحصر أهله عن الأهالي، إلا إذا كان نفسه معزولاً .. إنه بعيد .. وفي أغلب الحالات بعيدٌ جداً .. هذا النوع من الفنادق، أملته الضرورة السياسية، والضرورات الأخرى الاجتماعية والاقتصادية التي تطبع أصابعها بطابع التقدم والتطور أوراق العربي الحديث .. العربي الذي يجب أن يدخل العالم الجديد .. عالم الرفاه والبنين والبنات الأمريكيات الضالعات في حب الرمل والرقص الشرقي وأعناق الجمال الطويلة المقوّسة بالمقلوب .. الفنادق ذوات النجوم الخمس، تفصّل سكانها على شاكلتها .. فيضحون نساءً ورجالاً من مرتبة رجال النجوم الخمس ونساء النجوم الخمس، أقصد رجال ونساء الدرجة الأولى .. وهم نمط من الناس لكنهم ليسوا مثل الناس .. إنهم سكان الفنادق ذات النجوم الخمس .. إنهم النخبة القادة أو الرؤساء والرئيسات .. هؤلاء النخبة أعزهم الله بشيء من عنده .. لا يعرفون وما عادوا يودون أن يعرفوا ما الذي يجري خارج غرف وشبابيك وستائر الفنادق ذات النجوم الخمس .. لا يرون ولا يسمعون .. يرون ما يريد الفندق أن يروا ويسمعون ما يريد الفندق أن يسمعوا .. سكان هذه الفنادق لم يروا ماسحي الأحذية .. لقد وفَّر الفندق لهم ماسحة أحذية أوتوماتيكية .. ما أن تضع حذاءك تحت فرشاتها وتضغط زرّاً واضح المعالم .. حتى يصبح الجلد الحذائي الأسود لامعاً تماماً مثل الوجه الحليق حديثاً .. فلا يعرف سكان هذه الفنادق همّ وهموم فئة ماسحي الأحذية. سكان هذه الفنادق لا يعرفون فئة السواقين.

لهم سيارات خاصة، ذات زجاج معتم لا يشفّ إلا عن الغموض والتآمر والفساد .. وبين السائق لهذه «الليموزينات» والسكان فيها، حاجز من الزجاج الواقي للنظر والرصاص .. فهم لا يعرفون فئة السواقين كذلك .. لا يذهب هؤلاء إلى دكان الكواء، ففي كل صباح، يجمع الرجال والنساء ملابس النزلاء المتسخة بنتائج حفلات الليلة السابقة، مع الملابس المكوية والمغسولة والمرتَّبة في حقائب ثمينة، ويرسلونها إلى الكي بالنار والبخار الناشف، وتعود قبل بداية الحفلة المسائية مثل يوم ولدتها أمها .. فليس من الضروري أن يتعرفوا هموم الغسل والغسيل، الكي والمكويين.

سكّان هذه الفنادق من الرجال والنساء، لديهم بارٌ كامل الأوصاف والصفات والمحتويات في ركن من أركان الغرفة .. ويمكن لهم أن يفكروا بمزاج رائق، هم وزوّارهم من دون إزعاج أو انزعاج .. وهم إذ يخرجون من الغرفة بحذر وحرص .. تتلقفهم الصالات الواسعة المكيَّفة، حيث المقاعد المنتشرة، وتشنّف آذانهم وآذان آذانهم المغنية الأجنبية المنفردة، يرافقها عازف البيانو المستورد من دكاكين العالم الجديد .. وهما ليسا معنيين بالجمهور، تغني ويعزف أحياناً للكراسي والمقاعد ومنتصف الليل .. وفي هذا كفاية فنية وترفيهية عن تعب الحفلات الليلية وإرهاق جلسات العمل المتواصل بين نوم ونوم .. وبين فاكس وفاكس وتلفون خارجي وتلفون داخلي.

سكّان فنادق النجوم الخمس، يقرأون عن الشعب إذا ورد في العناوين العريضة للصحف اليومية فقط .. وهناك من يلخص لهم محتويات رسائل الفاكس وأعمدة الصحف وصفحات المجلات .. ويبحثون بسرعة عن أسمائهم وصورهم ويهددون ويتوعدون أمام خُدّامهم وحرّاسهم .. وتزداد حدّة الغضب إن كان في الجوار بعض النساء، وما أكثر تواجدهنّ في ردهات الفنادق ذات النجوم الخمس .. لسكان هذه الفنادق لغتهم ومصطلحاتهم، إلى جانب همومهم المتميزة .. وهذه اللغة لا تمتّ بصلة إلى لغة الشارع أو لغة الشعب الذي من المفروض أن يهتم به هؤلاء الرجال والنساء .. لأنهم، ببساطة، قد تشكلت لهم حالة عقلية كاملة من خلال الإقامة الدائمة في هذه الفنادق المعزولة العازلة.. الحالة العقلية هذه، معزولة وعازلة، فقدت صلتها بالأشياء الواقعية والناس وحياتهم اليومية، فهم لا يفكرون كما يفكر الناس .. ولا يهتمون بما يهتم به الناس. لا علاقات بينهم وبين شركة الكهرباء وفواتيرها وقارئي العدادات أمام البيوت .. لا علاقات بينهم وبين شركة الهاتف والبرق والبريد وتكاليف الفاكس .. إنهم يتذكرون أسماءهم عند التوقيع فقط .. لا علاقات بينهم وبين فئة الغسَّالين واللحّامين والطرّاشين وأصحاب البيوت المستأجرة .. ولا يهتمون بعدادات السيّارات وسجلاّتها.. لا علاقات لهم بتلاميذ المدارس، وهموم أبناء الجامعات وموظفي المكاتب وعمال التنظيفات وباعة العربات ومهندسي الأرصفة وكهرباء السيارات.

هؤلاء الناس لهم عالم كامل غير منقوص من الخدمات الصغيرة والكبيرة .. هؤلاء الناس لا يعرفون الناس ولا قيادتهم ولا همّهم ولا همومهم .. هؤلاء الناس تشغلهم الياقات ومقصات الأظافر وألوان العطور وروائحها، لعلَّ أهم الهموم فراشي الأسنان والفراشات الملونة.. أحيانا يطلبون سندويشات فلافل ..

ويلغون الطلب قبل دخول رائحة الزيت المقلي باب المصعد الأخير .. هؤلاء الناس مثل فنادقهم .. وكما هي فنادقهم حالة معمارية خاصة، فإنهم كذلك .. حالة عقلية خاصة.. في عالم الشخصية العربية المنكوبة بالمرحلة هذه .. وكل المراحل .. لم أرتبك أبداً لأن الفنادق هكذا .. ولأنّ سكانها هكذا .. ولكنني أرتبك للمسافة البعيدة جدّاً بين الفنادق هذه وبيوت الناس .. والمسافة الأبعد والأطول بين حالة السكان العقلية لهذه الفنادق وحالة الشعب السياسية والاجتماعية .. والأكثر إرباكاً .. أنهم يقودون دفة السفينة التي غرقت منذ العاصفة .. أقصد عاصفة الصحراء.

"المفهوم" في حكمة الملك دب "شلوم".. !!

في كل طلعة شمس، وفي كل غياب لها، من إشراقة الضوء إلى هبوط العتمة، ومن هبوط العتمة إلى إشراقة الضوء ثانية، ينعقد مجلس الملك دبشلوم، وحسب رغبة صاحب الجلالة الملك، ينعقد المجلس في الطرقات بين المدن، وفي المنحنيات بين القرى، مرة هنا في القطاع، ومرة هناك في البقاع، وحيناً على طاولة المفاوضات، وأحياناً كثيرة في الأسواق والمدارس والبيوت .. فالملك دبشلوم، قادر قدرة هي هو، عظيم عظمة هي هو، ويفسق المطاع لا عن شهوة أو حاجة، وللملك دبشلوم عسس وجند ينتشرون مثل الخفافيش والكاميرات .. وأشد عسس الملك سطوة وأقواهم شكيمة أولئك النفر المذهول النامي بين مجمل القول ومفصل المقول.. لكن الملك أطال الله في عمره، يسأل الأسئلة ويجيب، والكل يطيع، من بداية الصيف إلى نهاية الربيع .. أما الرعية فتمتد من صفر الجوع إلى تخمة التنمية .. وفي مشهد من المشاهد، بعد أكثر من نصف قرن من الآلام والشدائد، جلس الملك دبشلوم على عرش من الرخام الليلكي وانبطحت الرعية عند أقدامه.. كان فيهم المنتفخ مثل البالون، والضعيف الهزيل من شح الطعام وندرة الغذاء والماء.. وكان بين الرعية، أيضاً، الدولة القطرية المنادية بالوحدة الشاملة، والاتحاد المتآكل في ذاته، والكل يصيخ السمع، لما سيقوله الملك دبشلوم، من على برج دبابته السنية، أو من فوهة مدفعه المصوّب على زجاجة الحليب، أو برشامة من الدواء الذي مضى تاريخ صلاحيته وانقضى..

في ذلك المشهد، تحلق خلق كثير، ألقت المرضع وليدها جانباً، حملقت في عصا الملك وصولجانه، واستعرضت حياتها السابقة، ورحيلها من صحو الملك إلى إدمانه. وفي ذلك المشهد، أيضاً، رأيت القناصل الأجانب، والسفراء ذوي المراتب .. واستوى الرجل على نار السلطة والجبروت، فاهتزت الكرة اهتزاز الطروب اللعوب، والجميع في حيص بيص، فقال الملك دبشلوم : تمتد أحذية جنودي من الماء إلى الماء .. وأدخل بين البشرة والأدمة، وترتسم صورتي في القلوب والفصول .. وتطيع المدائن والأرياف .. أما البوادي، فلم تعد مسكونة بغير الهوام والضفادع .. إنني أعشق النقيق .. «بدأت الضفادع نقيقها الذي

تواصل وتراسل، وكنت تميز فيه نقيق الكبار والنافذين، صوت الوزير يعلو على صوت المدير العام، وصاحب شركة الأوهام، يطبع من كل وهم عدة مقاعد، يوزعها على الوقوف والجالسين .. فيجلس بعضهم على الكرسي، وبعضهم يضع الكرسي على رأسه وظهره، مخافة ليالي الشتاء الباردة .. هتف رجل كهل، بلسان غير ذي عوج : يا عالي الهمة .. اسمح لنا، نحن المطلين على وادي النار، أن ننام ليلنا، على وسادة الخوف المؤجل، وأعط أوامرك المطاعة للصقيع أن يلطف، ليس بحالنا، ولكن بحال الصغار .. لأنهم لا يدركون بعد .. لا تقلب الطاولة، فأوعية الطبيخ وقدور العدس والحمص، نسيت زفر اللحم، إلا رائحة الدم المنبعث من فتحات الجروح. ابتسم الملك دبشلوم .. ابتسامة ملكية الاتساع وقال : ليذهب هذا المواطن إلى واحدة من قلاعي، أو إلى حصن من حصوني، مزيناً صدره بجنازير الدبابات، وعلى جبهته لطخة من طين النفط الخام، وإذا تعبت أقدامه في الطريق، فليزحف على ركبتيه وبطنه، وإن تباطأ في صعود السفوح أو نزول المنحدرات، تحشى عينه اليمنى بكحل البارود الأبيض .. ويحرم من متابعة جولات المفاوضات، خاصة الجولة السابعة .. هكذا أقول .. أنا الملك دبشلوم .. وهكذا يصير .. يا أبناء الشمس ..

انبرى أنيق مثل طاووس، في عروته زهرة نشفت أوراقها بالسفر، وفحّ وكحّ، وصمم صوته حسب الأداء الموضوع، وقال متطاولاً على الحضرة السلطانية والحضور : سيدي، وسيد الفضل والفضيلة، المعتقلون الأمنيون آمنون تمام الأمان، والأسلاك الشائكة تيجان على الرؤوس وفي الأقدام، ونحن نقبل منك ما يجود به جودك ويكفينا . ويزيد، ما تلطفت به حكمتك في الرعاية، فأنت قبل التصويت في القلب، وبعده في الشرق والغرب، وإن أمرت يكن السلام.. وإن رغبت يكن الوفد جاهزاً للسفر، ولو أن الجند والمجندات على لطافة في الخلق والخلقة، لا يأبهون بنا في الذهاب والجيئة .. ونحن كما تعرف ونعرف .. نوشك أن نتورط في المحظور .. فأنت ومن معك من إخوتنا، تشدون علينا الشدة، وتطيلون علينا المدة .. قال الملك دبشلوم بلغته القاطعة كالسكّين : أسمع العجب .. وأرى الجحود في الصوت بالعين المجردة .. لكنكم يا ولدي بين المطرقة والسندان، مطرقة من نهيتكم عن الكلام معه، وسنداني الموضوع على قاعدة الأرض والسلام .. وتحت أقدامي الأرض، وفي أوامري السلام .. لولاي ظللتم في الخوف والمجهول، ومن دوني تضلون بين الأشقاء والأشقياء، أعطيكم المدن ولي خارجها، لكم القرى الهيكلية ولجندي التلال بعصافيرها، ولكم الصلاة في المسجد الأول، ولكنني أفحص راحاتكم والأزقة، والشباب المسكونة عيونهم بالأخضر .. أما المستوطنات، فلكم أن تتعلموا من الإبداع التشكيلي بين ألوان قرميدها، وألوان الفصول .. وتحاكموا الخارجين عن الطرائق والطرق .. أمنعكم من التمادي في الأحلام، وأسمح لكم بالاضطجاع على الجانب الموافق، أيضاً .. وذلك خير عميم .. وصمت الأنيق مثل طاووس، وخرجت الصحائف، سطورها من لهيب بارد .. وتشابكت خطوط الاتصال .. ودعي الكثيرون إلى بيوت واسعة للعشاء والتداول .. واستمرت أجهزة الحاسوب في تفريخ فواتير الماء والكهرباء .. ولم يتغير شيء في إجراءات السفر بالطائرة، وتغريم ذوي الحقائب ذات الوزن الزائد ..

ران صمت ليس كمثله صمت .. طال الشاشات الفضية .. وأعمدة الجرائد .. ورؤساء الجامعات، وأمناء المجالس .. حتى جلجل صوت أم أحمد .. وكأنها لا تدرك خطورة المرحلة .. أو أنها لا تعي معنى أن تكون

في حضرة الملك دبشلوم .. صرخت وصوتها جاء من قاع رأسها المهمومة بأيام العرب : يا أستاذ الزمن، وصاحب الكاز والسولار، وسيد البطاطا والعنب وزيت الزيتون .. ولدي الصغير، أكبر الله شأنك وشأوك .. أخذت الذي أخذت، وفعلت الذي فعلت .. قبضت وصرفت .. وبنا وبأقدارنا تصرفت .. إما أن تخرج الأمعاء والمعدة أو تفسح لنا في المكان فنملأهما بما يخرس صوت الجوع، لم نقف في طريق الحافرات، فلماذا تنشف جهران الروح والجسد .. أطلقت المهرة في نفخ الرجال، حتى امتلأ الأفق بالمحترفين ذوي الألوان والأجهزة .. لك الجبروت الأطرش وليس لنا إلا هؤلاء الذين صنعت على شاكلتنا وبمضمونك المتقلب .. حين سألتك العدل أمس الأول، قلت لي : في الأخلاق، لا يجوز لسيف القاضي أن يقسم لحم الناس وأطرافهم أنصافاً وأثلاثاً .. وفي السياسة، قلت إن الرحمة غباء وتراجع، ولما ألحفت في الصراخ المجيد، اعترفت أن الأخلاق معي والسياسة من إبداعك .. أما حين ناقشت ونقشت عيني في وجهك، قلت إن الأخلاق الحميدة لا تقيم حجراً على حجر .. ولا تعاون طائرة على قصف أو مدفعاً على تصويب .. أما الساسة .. فألزمتني بهم بلا عدد .. وقلت، أيضاً .. اختاروا من أشرفهم بالخطوة على سجادة المراسيم .. ولما قلنا لنا همسة .. ارتفعت حقائب الجوالين .. ولمعت شعورهم بالزيت .. وحفظوا عنك يا سيدي أن السياسة هي فن الممكن .. ولم يكن بالإمكان أفضل مما كان .. ارتفعت عقيرة دبشلوم، كالطير على الرؤوس ومنع التصاريح، وجمع شمل العائلات .. حتى السفراء والقناصل توددوا له أن يخفف من غلوائه في الغضب ..

أما من تبرع بإسكات (أم أحمد)، فهو جارها المنفوخ بالوهم .. وجاء صوت الملك دبشلوم : أذهب إلى الشمال حتى قلب الهدنة التي أريد، وأذهب إلى الجنوب حتى بيت نور الشريف وآثار وادي الأقصر .. وإلى الشرق حتى وجه النفط الأسود .. ولغة الصين المعقدة .. أما الغرب، فهو لي تماماً، من المكسيك إلى هوليوود .. وليس للطقس هناك .. إلا أن يصير حسب ملابسي وحالتي من المزاج .. الهنود الحمر وريش رؤوسهم، خيول السود المطهمة، تحيط بطاولتي ذات الكرسي الواحد .. أما المطارات، فجميعها ملاعب مناسبة لأيام طفولتي .. لتخرج هذه المرأة من حضرتي .. لتبق أيامها مبللة بالصعوبة، وشعرها مجدلاً كالأفاعي .. وبإشارة من يد الملك دبشلوم، أرفض الجمع .. أخذتهم دروبهم ذات الإتجاه الواحد .. الدولة ذهبت إلى رئيسها، والشركة إلى مدير إدارتها، والبنك إلى خزنته .. توسعت الشقوق في أسمنت السد المانع .. ولجأ الكبار إلى التهديد والوعيد .. وخلت الممرات من الابتسامات المزيفة .. حتى الملك دبشلوم شوهد وهو يغادر الاجتماع وابتسامة لا معنى لها تلوح في صولجانه من الخلف .. أما (أم أحمد)، فدخلت في نقاش جديد مع جارتها اللدود، قالت (أم أحمد) : سنة بطولها وعرضها وطلعت على فاشوش .. قالت الجارة : شوربة عدس .. قال ابني : «إنو العدس فيه حديد .. يا أختي يا أم أحمد، على رأيك .. الملك دبشلوم بحب العدس ..؟ ما في حدا في الدنيا ما بحب العدس .. حتى الملك دبشلوم .. طيب ودبشلومنا بحب العدس .. مهو دبشلومنا مثل دبشلومهم .. والطباخ واحد .. بس في عدس أشقر وعدس أسمر .. هو هو يا أختي، كلّو عدس .. الرّك ع الطعم .. نهضت جارة (أم أحمد) وهي تقول: خليني أطبخ شوية هالعدس .. ما دام في العدس حديد .. ألف صحة وعافية .. كلها عدس في عدس».

شموع لـ (عنان) .. شتات .. !

تقديم مناسب

الريح غالية الثمن .. فكيف حال الزوبعة .. والليل طاولة من الأشخاص والورد الجميل، وكل أشكال السباب المقذعة.

الزنبق البري مثل الزنبق البيتي، بحر الليل مركبه وخيم، كيف شوقي يقطع النهر الجميل إليك، حتى لو نسيت هويتي، وخلعت «قمبازي» ووزعت القميص لعابر المقهى، لأرملة محناة جدائلها أبعث الأمتعة.

سيظل بحر الروم مهتاجاً، وجنياته جارات أحبابي، ومن طعن الوفاء بيانه أعطيته يا سيدي الموسى، ومكتبه الأنيق، وما تضم المطبعة. أعطيته ما يستبد به، يمثل في عباد الله، باسمك يرفع الشكوى يحجر فيك في كل المجالس، يستبيح مقدسات الحرف، كف يديه عن أنشودتي الأخرى وإلا .. أطرح الكلمات من أصدافها، وأعلق الأنباء والأشياء والأسماء على باب الحانة الأخرى وباب الصومعة.

فالشمس طالعة على وجع الذي يأتي، وأطفال المدارس يقرأون اللوح، والدنيا ملثمة بأثواب الشتا، والنرجس العاري يوشوش أدمعه.

انس المسافة بيننا، اخنس لدى الشباك، انزع من جدار البيت كل طلائه الباقي، وبعد قراءتي، قرر لماذا تمنح الباغي مخالبه، وكيف تصير أزلام المراحل، يطلع الخنشار من جذر القضية، كيف شعب من عمالقة الرجال، يغلق الأبواب في باب وحيد، ثم يجلس في نعاس شتاته، حتى تمر كفاءة الكفار في مهل.

وتنفضّ العذارى من مجالسها، وتهترئ الثياب، فتشهد الدنيا ضباباً في الفصول الأربعة ؟!

الساكن رحل من هنا

ليست المرة الأولى التي أكتب فيها عنك أو أكتب إليك، وليست المرة الوحيدة التي أرسل لك شيئاً، ويعود وقد مسح الفيافي والقفار، فيافي العواصم والمدائن، وقفار الأمصار والأقطار .. وفي كل مرة، ما يعود من الورق يكون موسوماً بخاتم غامض يفيد أنك غير موجود .. فارتبك بصدق النية واحزن لغموض المسافات.. لكنني أنسى دائما منطق الشتات .. أنسى مهارة المنفى في إخفاء العقول والفصول .. أنتظر سكين الوقت الحادة .. تقطع شرحة من الزمن تقدمها لخشب الطاولة أو لصمت الرصيف حيث تبيت مواجدي، وتسيل الدماء الساخنة بخطأ فادح في تركيب مواسير البنادق النشيطة هنا .. أعود لأوراقك الواصلة عن طريق رأس الرجاء الصالح، أنشرها أمامي بمنشار الكهرباء المقطوعة، وأميزها أوصالاً، عيوناً وآذاناً .. وأرتبك لأنك لست أمامي كما أشتهي أن أكون، وكما أشتهي أن تكون .. فأعيد النشر وأعود للرجال فلا أجدهم وأظن أنهم يهربون مني أو يهربون في فراغهم المشغول جدّاً.

المدينة هنا صلبة مثل حديد مطروق، والقرية مائعة مثل السوائل الداكنة تماماً، والمخيم ينتفض في الريح والصفيح .

ولا يزال في أريحا موز لم يكتمل لونه بعد .. في المدينة الأولى شوارع تفضي إلى مسقط رأسك، ذهبت إلى هناك، وخرائطك منشورة أمامي مثل وجه جميل .. كانت أمك ترحب بي قبل المغيب بباع أو ذراع، حملت لها من المدينة القريبة جداً كيلو من الكنافة .. من صناع ماهر كان يوشك أن يغلق دكانه .. ومع ذلك، فقد ألقم العجين الحلو جبنة ليست فاسدة، وكانت ناعمة حتى إنني رأيتها تذوب سهلة تحت الأسنان النادرة لتلك العجوز المنحنية الظهر في كبرياء عتيق.

وقفت في باب داركم، كان خلفي جبل لم يستطع حجب ملح البحر، وأرسلت نظراً ضعيفاً نحو الشرق، ورأيت بالتمام والكمال، كما صورك اليقين .. قلت لنفسي : أسرع إليه قبل اختفاء الماء، فالغيوم تتلبَّد، وليس دائماً يمكن إمساك اللحظات : أومأت إليك فتوقفت .. وكان الشتات على ثيابك غباراً ينزّ المتاعب والقسم .. قلت لنفسي، أيضاً : قل له أن يتريث، وخاطبه بالتي هي أحسن .. فالنبالة قيمة إذا سكنت في المكان أحالت الجيوش إلى حافظ للعدالة أو سور يمنع الظلم من دخول الحظيرة .. وليست الكتابة لمن هو مثلك في الشتات الخيار الوحيد، لولا أن المكان مسكون بالسكون وبرد الشتاء القارس .. ولو كان صوتي مسموعاً لصرخت عبر النهر والمستوطنات أن المكان يضيق حتى عن مساحة زنزانة بحجم الروح .. وحتى متى الانتظار والترقب أن يفرز هكذا العالم الجديد حقوقنا فنعرف نوايا السادة فيه، تجاه العالم والشعوب الأخرى التي تصنفها رسالتك في كبيرة وصغيرة ..؟!

أريد أن أعدك أن تكريسك طاقة الموت والشهادة، حتى تصير مدرسة وبحراً وأرضاً ومصنعاً .. أعدك أن هذا التكريس سيزهر مشواراً من باب نابلس إلى باب غزة .. فمن غيرك انقسمت طفولته وفتاته الجميلة

بين هنا وهناك .. فامتهن الحلم .. وصار داعياً للحياة.
البشرى التي تحمل، جعلت عمالقة الحروب أقزاماً، وأسياد القوة فقراء يعوزهم خفاء الحكم وجفاف الحكمة امتلاك الرؤيا الواضحة. ولو أسعفتني المسافة وأسعفني الصوت لصرخت عبر النهر : يا حامل غبار الشتات وأوجاعه .. ابحث بين الخراف عن واحد ليكون في الاستقبال.. وعن الضمان الأخضر ليحف بالجوانب من لحظة البدء حتى انقضاء الوصول .. ولكنت قد صرخت أن تترك عباءة الشتات المهلهلة بالوعثاء والغضب معلقة على جذع خائر من جذوع الوطن الكبير، الذي ضاق اتساعه عن فراغ تشغل فيه الحيز الذي أراده لك الله القدير .. لكنني ضاع صوتي في الريح، واختلط بهدير الأمواج، وخرجت من ورق الشجر المتكوم على رصيف المرحلة، فتاة جميلة، سمعت أنك عرفتها في يوم .. ولما شدت ثوبي لأشرب الشاي .. نظرت في جدائلها، وتمنيت لو أرمي لك بجديلة تتعلق بها وتطوح جسدك المتين كما كنت تفعل على جذوع التين واللوز .. إذن، لتناولنا معا طعام العشاء.
لا أستطيع يا صديقي في الشتات أن أقرأ رسالتك على جمهور الأرض المحتلة، ليس مخافة أو ضيق وقت، فهم جميعاً في شوق للسماع .. لكنني أحذر الخطأ في القراءة، لأن ذاك الذي تبرع أن يلمّ الجراح الفلسطينية من مخيمات لبنان والكويت لا بُدّ أن يسكنه الخوف من أن ينكأ جرحاً أو يثير خاصرة، فالأمهات على مستوى من الحرص كبير، إذا كانت الأكف التي ترعى فلذات الأكباد ليست مقلمة الأظافر، ومغسولة بالماء الصادق والنظيف .. من هنا أتمنى أن تخطب ولو لمدة وجيزة في مدرج من مدرجات الجامعة، أو على ناصية من نواصي شوارع المخيمات التي أحببت هناك .. وستحب هنا.
بالأمس كان آخر النهار كئيباً، هبط الليل بسرعة وكأنه يأكل النهار، تلبدت الغيوم سوداء مثل أجنحة الغربان .. وكانت الجهات قد تداخلت واختلط لون الليل بلون الروح .. ثم ركض إلي مسرع من الرجال وقال : أتيت مباشرة من الجسر .. أحمل لك هذه الرسالة، وهو يريد رداً، وإلى اللقاء .. كان في السيارة وجوه متعبة لا تكلف نفسها مشقة النظر، كأنها اطمأنت أنها في رعاية الوطن .. وكان على سطح السيارة حقائب وأشياء، حقائب بللها المطر ولم ينفذ في جوفها فالتمع على جلدها الملون .. أما الأشياء مثل الحصر مثلاً، فقد كانت رانخة بالمطر، ثم تذكرت لماذا يحمل الفلسطيني بعض المتاع دائماً؟!
قبل الاهتداء إلى إجابة تذكرت رسالتك، ثم قرأتها فكان ورقها يضج بالأجوبة .. ولم أجد من يسافر إليك .. طيلة الشهور والأسابيع لم أجد من يحمل ردي إليك .. فقررت أن أكتبه هكذا ولدي اليقين أنك ستقرأه لمن حولك في فراغ الشتات .. وإذا لم تفعل، فلك من العذر ما لا أستوعب في المسافة، ولكنني أنتظركم هنا، لا أنتظر وحدي، لأن هذا الشجر الغارق في حبر هذا المساء يتطاول كي يرى عبر النهر.
سمعت أنهم تحدثوا عن اللاجئين على طاولة المفاوضات، تحدثوا عنكم، أقصد عنك، أيضاً، في كندا .. وسمعت شائعات كثيرة .. منها أنهم قد يعوضونكم، لست أدري كيف. قد يدفعون دولاراً وحداً عن كل عام من الشتات. أو دولاراً عن كل خمس سنوات من الحنين والتشرد.

ولأنني أعرفك بالقلب، حاولت أن أكتب لهم أن سنوات الشتات، وعقود التشرد ليست مقاييس صحيحة للأحزان والأفراح .. حاولت أن أكتب لهم أن إشكالية الحنين، وانتظار الزوج الغائب والولد الضائع لا يقاس بالمتر المربع والدولار المكعب .. وأن دمعة واحدة سقطت من عينك في دنيا نفسك، قد أحدثت مجرى عميقاً لا تملأه الأشياء، كل الأشياء، قلت لهم إنه يسكن في جرحك أربعة ملايين من الجراح، وإن في ضمير أحزانك أربعة ملايين من ألوان الأحزان .. وعادت إليّ رسائلي الكثيرة، من دون تعليق، فقررت أن أتوقف عن نظم الشعر والدخول في عالم الحساب .. ألم تقل لي يوماً إنه من الضروري أن أوشح قصائدي ببعض الأرقام ومقالاتي ببعض معادلات الكيمياء؟ ولكنني ظللت بعيداً عن اقتصاد الجسد لانشغالي بتحضير الأرواح في سلة الخوف والغضب.

وفي آخر هذا الخطاب، سأذكرك بما طلبت، وهو في كمال الفعل الذي سيأتيك. فالكتاب الأبيض عالقة صفحاته بماء الانتظار، وخطوطه العامة تشمل في ضميرها كل الذي تقول والذي أقول .. وحين يأتيك ممهوراً بالصور والرسوم لا ترسله بعيداً في غياهب الشتات ..

أما السراج، فلم أشأ أن يكون معتم الفتيلة، استبدله بالشموع حتى انتشار الفجر، وعلى ضوء خافت يستمر الكلام .. وفي استمراره ينمو الصغار، وتشغل بالبحث عن مدارس لهم وأحذية، وتزيد التجاعيد في لحمة الوجه والرقبة .. ونصبح أقل إغراء لزوايا صحراء الشتات، والشتات حيوان مفترس، ألذ طعامه المتعبون والفرائس الناعمة كمنديل المسافر .. الشتات مطار مشغول دائماً وقطار يتوقف لالتقاط الأطفال الذين مات عنهم آباؤهم.

أشكرك يا صديقي عنان، وإن تذكرك لي ولأمثالي مبالغة في كرم الذات .. واستزادة من ملح الدموع .. وإلى أن أراك، سأزور والدتك مرات أخرى .. وسأحمل لها حلويات جبنتها غير فاسدة .. وقل لمن حولك من المشردين .. إن الشمس هنا كما تريد .. لن تكف عن الطلوع كل صباح.

الاغتراب.. والوعي المزيّف

في لغة التعبير عن الوجود، حالات لا متناهية التنوع، لأن تجليات الكون وخفائه تتخذ صوراً يصعب حدها وتحديدها، ولأن التعبير الذي يتم باللغة يختلف باختلاف هذه الحالات، أمكن قراءة تجليات الكون من تجليات النصوص وخفائها، فصور اللغة يجب أن تكون من صور الوجود.. لكن الكون أكثر ثروة وأشد غنى من ثروة اللغة وغناها.. حتى إن العكس يصير قاعدة يمكن الركون إليها، وهي أن نصوص اللغة تجمد حيوية تيار الحياة المتدفق، تيار الفصول وتيار الروح، الفرد البشري الواحد، كون كامل بمقياس رسم مناسب .. فيه ينعكس جسد الكون وروح الوجود.. وفيه، أيضاً، تنمو الصور الجزئية والتفاصيل منذ الولادة حتى الموت.

في كل ولادة يولد العالم مرة جديدة، ويبدأ هذا العالم بالنمو مع الفرد في حدود قدرة الاستعداد الفردي، ومدى أفراح البيئة الاجتماعية والثقافية وأحزانها، فاللغة تولد من جديد وتتطور وتكبر مع هذا الوليد الجديد، ومعه تنمو المفاهيم والمعاني والمسلكيات والوجدان، تنشأ معاني الأمومة والأبوة ومعنى الوطن ومعنى الآخر، ومعنى التاريخ بأبطاله وأحداثه، بكوارثه ولحظات إشراق الحق والخير والجمال. ومع موت تموت الدنيا بشكل أو بآخر، يموت المكان وتموت الثقافة كما خبرها هذا الذي يموت، تموت معه أو بموته معاني التاريخ بأبطاله وشخوصه وأحداثه، وهذا هو سر الخوف من الموت، فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يموت، بمعنى أنه يعي إمكانية موته قبل أن يقع فعل الموت، ولأن هذا الوعي شديد اللصوق بذات الفرد، فإننا نقول عن الإنسان إنه يموت أو يستشهد، ونقول عن الحيوان إنه ينفق، فالحيوان خالٍ من الوعي بالموت والوعي بالحياة، أما الإنسان، فهو يعي أنه يموت قبل أن يموت. هذا النص صور التلخيص الممكن لنهاية حديث مطوّل مع رجل يعتزم الرحيل من الوطن وإلى الأبد، رغم أنه يعاني المرض الشديد، لكنه أفاد أنه يشعر بحالة لا يستطيع احتمالها من الاغتراب، وقد أدركت منذ اللحظة الأولى أن هذا الرجل سيرحل لا محالة، وأن أي حديث يهدف منعه من الرحيل، أو إقناعه بالعدول عنه، لن يكون مجدياً .. لذت

بالصمت طويلاً، لكن الرجل أخرجني من الحالة حين أفاد بما يلي : لم يعد هناك من إمكانية للعيش هنا .. فأنا غريب عن الناس، ولم أعد أحترم قيمة من قيمهم أو قاعدة من قواعد أخلاقهم .. النميمة والفساد، والكذب والغش .. تنخر الناس من أقصاهم إلى أقصاهم، لا بُدّ من أن أتخلص من هذه الحالة، هناك أموت بهدوء على الأقل، لا يعرفني أحد ولا أعرف أحداً. الهجاج هو العلاج الوحيد الممكن .. هذا الحزن مدمر .. وأوشكت بالأمس على ارتكاب ما لا يمكن الحديث عنه .

اعتذر الرجل ودخل غرفة ينام فيها، ولملمت أشيائي وهممت بالمغادرة .. قال صديقي الذي يجلس أمامي : حبذا لو تعلمنا شيئاً عن الحالة التي يعاني منها .. أصبح لا يطاق .. قلت : إنه يعاني حالة شديدة من الاغتراب.. توافقت تماماً مع درجة متقدمة من الوعي المزيف. وماذا تعني بالاغتراب؟ قلت لصديقي : الاغتراب لغة وقاموساً، مصطلح في الفلسفة والقانون، نستعمله حين تنتقل الملكية، خاصة ملكية الأرض والعقار، من شخص إلى آخر .. وهذا هو التغريب، تغريب الأرض وتغريب الممتلكات بنقلها إلى أشخاص أو مؤسسات، هكذا كان الأمر حين تنتقل ملكية الأرض إلى الكنيسة فيقال تغربت الأرض .. وفي المعنى التحديدي، فإن الاغتراب مصطلح زاد استعماله في ما بعد الحرب الأولى والثانية، وفي ميادين الأدب وعلم النفس وعلم الاجتماع .. ويعود إلى الفلسفة المثالية والمادية سواء بسواء .. أما اليوم، فالاغتراب حالة نفسية يعانيها الفرد وتعانيها الجماعة نتيجة لانتقال المعاني والأفكار والأشياء من حالة الفعل الإيجابي إلى حالة الفعل السلبي أو اللافعل .. فالاغتراب بهذا المعنى، انفصال وحسّ بالاستلاب .. انفصال بين الذات وذاتها، وبين الذات ووسطها الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي.

في حالات الاغتراب القاسية، تكف المعاني عن أن تفعل فعلها الذي اعتادت أن تفعله في حياة الفرد المادية والروحية، فمعنى الجار لم يعد نفس المعنى السابق، ومعاني الحرية والديمقراطية تغيرت كذلك .. وهكذا معاني الروابط الاجتماعية والمفاهيم السياسية، وهكذا معنى القيادة والتاريخ والنظام والإنتاج .. كان المعنى يفعل في حياة الفرد إيجاباً، فصار نفس المعنى وقد تغير بفعل فعله السلبي.

إن الاغتراب تكسر في قشرة الدنيا الفردية والاجتماعية، مادة وثقافة .. والاغتراب انفصال عن الآخر والمكان والزمان .. وحسّ قاس بالاستلاب من الذات .. إن الاغتراب حالة نفسية غير متوازنة لا في ذاتها ولا مع ذات الآخرين .. ولا حتى مع إنتاج هذه الذات .. في الاغتراب، يغيب التوازن الروحي والمادي في داخل الشخصية وحولها في البيئة : تتساقط المعاني وتصبح فارغة، وتتشوه العلاقات وتصبح آنية قصيرة غير صادقة وشكلية .. وتتلون الحياة بالنسبة للشخص والجماعة بالخوف والشك وعدم الرضا عن الذات والآخر .. ولا بُدّ من إعادة التوازن المفقود للذات، توازنها المفقود مع نفسها، وتوازنها المرتبك مع محيطها الاجتماعي والإنتاجي والثقافي.

قال صديقي : إذا كان الاغتراب كذلك .. ويبدو لي أنه كذلك بالفعل .. فإنه يطال تفاصيل الحياة ومجالاتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية .. لأن توازن الذات مع ذاتها ومع الآخرين، يحتاج إلى توازن المجتمع بكل أنظمته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإنتاجية .. أليس كذلك! هو كذلك بالفعل

.. لأننا يمكن أن نتحدث عن الاغتراب الإنتاجي والاقتصادي والاغتراب السياسي والاغتراب الاجتماعي .. إلخ، لكن علينا ألا ننسى أن الاغتراب ليس حالة جزئية، إن فيه شمولية تغطي الحياة .. فالاغتراب السياسي ينعكس في الاغتراب الاجتماعي والاقتصادي .. لأن الحياة مترابطة الجوانب والأنساق. قال صديقي : كيف يكون الاغتراب السياسي مثلاً، أو الاغتراب الاقتصادي إنتاجيّاً ؟ قلت بسرعة : الذي نتعلمه في الأسرة والمدرسة، ومن كتب التاريخ والأدب، كان ولا يزال يقول لنا إن القائد السياسي أو الزعيم السياسي هو رجل متميز بأخلاقيات تقوم على المبادئ .. فهو مثلاً صادق وكريم ويضحي من أجل الآخرين، ويعفّ عن التلاعب بمصالح ومستقبل التابعين له .. والذين يرفعونه إلى سدة الزعامة والقيادة .. ويتشكل هذا المعنى للقائد والقادة منذ الولادة، وينمو فينا يوماً بعد يوم .. ثم تبدأ الأمور تتكشف، فإذا الزعيم يرتشي ويساوم ويضرب بنا وبالمبادئ عرض الحائط .. ويقيم بينه وبيننا أسواراً من الشكليات والمسافات ما لا يحتمل عقلنا إدراك مبرراتها .. وفي الحدود القصوى، قد يساوم علينا وعلى مستقبل أولادنا .. فنقع بعد عدة سنوات وعدة تجارب في الاغتراب .. فلا نعود نثق بالقادة أو الزعماء .. فتسقط القيادة ويسقط الزعماء .. ونقع نحن في هوة الاغتراب .. لأن معنى القيادة لم يعد كما نعرف ونحب .. وممارسات الزعيم أو القائد تتنكر لهذا المعنى.. فندفع الثمن اغتراباً واستلاباً. أما في الإنتاج .. فالأمر أكثر وضوحاً .. فالعامل مثلاً أو المبدع .. ينتج ما ينتج، لكن إنتاجه يتغرب عنه.. فكأنه يشعر باستلاب جهده وإبداعه، خاصة في عالم الإنتاج السلعي، والإنتاج الإبداعي .. فالذي يصنع أو يشارك في صناعة مئات الآلاف من السيارات .. لا يستطيع التمتع بها أو بواحدة منها .. وكذلك بالنسبة للسلع الأخرى .. فيقع في حالة الاغتراب ويشعر بالاستلاب.

بدأ الاهتمام يرتسم على وجه صديقي، وقال: إذاً يمكن للاغتراب أن يكون تدميراً، فكيف نواجه هذه الحالة العجيبة من عدم التوازن الذاتي والاجتماعي؟! قلت لصديقي: الاغتراب كحالة نفسية اجتماعية يفترض أن نسلك حياله سلوكاً يعيد للذات توازنها، لكن دراسة حالات الاغتراب ومواقفه كشفت أن الوعي بالحالة الاغترابية هي التي تقرر كيفية مواجهة الذات لاغترابها. وما دخل الوعي بالاغتراب، ألا يفرض الاغتراب نفسه كحالة نفسية اجتماعية غير متوازنة على الأفراد بصرف النظر عن درجة وعيهم؟! ذلك ليس كذلك .. لأن الاغتراب يزداد في الشدة والمدة حسب درجة وعي الذات بذاتها وبمحيطها الاجتماعي، فكلما زادت درجة الوعي حدة وشدة، كلما صارت الحالة الاغترابية أقسى وأشد إيلاماً. وكيف نواجه هذه الحالة؟! قلت لصديقي : الموقف الاغترابي المتراكم يتألف من الفكر والوجدان والسلوك.

والاغتراب ينشأ أول ما ينشأ كعدم توازن في المعاني وهي تؤلف الفكر، ثم يستحيل بالتدريج إلى اغتراب في الوجدان ثم يظهر في السلوك .. وإذا كنا لا نستطيع بسهولة قياس اغتراب الفكر والوجدان، إلا أن ملاحظة الاغتراب من خلال قراءة السلوك تصبح أكثر يسراً .. لذلك، لا بد من البحث الدقيق والعلمي للموقف الاغترابي ليزداد الوعي به من أجل مواجهته والقضاء على أسبابه ومبرراته. هنا، إما أن تقود دراسة الاغتراب إلى وعي مزيف به أو إلى وعي أصيل، والوعي المزيف يبقي على دواعي الاغتراب

وأسبابه. بينما يهاجم الوعي الأصيل هذه الأسباب ويجتثها من جذورها، فيعود التوازن إلى الذات وإلى المجتمع. إن حصر السلوكات التي واجهت المواقف الاغترابية، يجعلنا نصنفها في سلوكات الوعي المزيف وسلوكات الوعي الأصيل بالموقف الاغترابي، إلا أننا نسارع إلى القول : إن هناك حلاً واحداً أصيلاً للاستلاب والاغتراب وعدة حلول مزيفة .. فمثلاً : الهجاج في المكان .. أو الهجرة من المكان الذي نشعر فيه بالاغتراب إلى مكان أو بلد أو دولة أو ثقافة أخرى، نظن أنه لن نعاني الاغتراب فيها، هذا حلٌّ مزيف، لأنه يبقي على الموقف الاغترابي وقد يزيد الوعي به سوءاً .. لأننا حين نسافر هرباً من الشعور بالاغتراب، فإننا نتخيل أننا نترك الاغتراب وراءنا كما تركنا بعض ملابسنا القديمة .. لكن الاغتراب حالة نفسية جسدية فكرية تساوينا تماماً وتسافر معنا، وتنام حين ننام، وتقوم حين نقوم .. ومثل هذا الحل لموقف الاغتراب الهجاج في الزمان، سواء كان الزمان الماضي أو الزمان المستقبل، فالهجرة النفسية إلى الماضي حيث اللحظة التاريخية التي نظن أنها تنقذنا من الاغتراب، لا يفيدنا أبداً .. ولكنه يبقي على الاغتراب ملوناً بثوب التاريخ الزاهي فقط، ومثل ذلك الهجاج إلى المستقبل القادم، أما الهجاج في الذات، أو الهجرة النفسية، وهي الانكفاء على النفس وتقليل النشاط مع الآخرين والعزلة والتوحد، فإنها، أيضاً، لا تزيل الاغتراب، بل تعمقه وتزيد من حدته وتفاقمه.

قال صديقي : إذاً كل الذين يهاجرون هرباً من القمع أو من الفقر، أو رغبة في الثروة والجاه، لا يفيدهم ذلك شيئاً في رأيك؟ قلت لصديقي: يخيل إليهم أنهم تخلصوا من عذاب الاغتراب لفترة قصيرة، ومن ثم يجدون أن الاغتراب لا يزال يعشش هناك في ذواتهم، بل لعلهم الآن في حالة أكثر قسوة وشدة، وكذلك حال الواهمين في المستقبل أو في الدول الأخرى والأماكن التي يظنون أنها ستكون قادرة على إنقاذهم من أنياب الاغتراب. قال صديقي : هذه السلوكات صادرة عن وعي مزيف، ولا بد من سلوك وحيد هو الصادر عن الوعي الأصيل بالاغتراب، وهذا السلوك هو تحدي الاغتراب ومواجهة الموقف الاستلابي .. ولا تنس أن المحاولات الزائفة هي إما قبول مقنع بالاغتراب، أو خضوع مبرر للموقف الاغترابي أو أنها هروب متخيل من الموقف الاغترابي .. وهذه جميعاً لا تستأصل الاغتراب، بل تزيده حدة، لكنها على كل حال حلول سهلة وبسيطة ولا ندفع فيها تكاليف نفسية وجسدية باهظة، لذلك يلجأ الناس إليها كثيراً، أما الحل الوحيد، فهو تحدي الموقف الاغترابي ومواجهته والتحديق فيه .. ودراسته.

قال صديقي خائفاً : تقصد الثورة والتحدي؟

– نعم أقصد ذلك، لأن أسباب الاغتراب لا يمكن إزالتها بالهروب أو الخضوع، فقط يمكن إزالتها بتحديها.

– تقصد على كل المستويات؟ قلت : هذا ما قادنا إليه التحليل، ومن قبل الشروط، قبل النتائج، ورغم كل ذلك، فإنّ صديقنا المغترب، لن يقرأ هذه الكلمات، فهو الآن، وكما أخمن، يطير في سماء ليست سماء الوطن .. ويتكلم مع أناس بلغة ليست اللغة العربية .. أما اغترابه، فقد سافر معه .. من دون تذكرة ومن دون حقائب.